

وقفات مع آية الحقوق العشرة

إخوة الإيمان: فاتقوا الله عباد الله، وقوموا بما يجب عليكم من حق الله تعالى ومن له حق من العباد، واتقوا النار التي أعدت لمن أهمل الواجبات وارتكب الفساد، قال الله تعالى: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده، وذلك بالتذلل له، والخضوع له بالطاعة، مخلصين له العباد، غير مشركين فيها معه غيره، كما أمرهم بالإحسان إلى الوالدين، وإلى الأقارب، وإلى الأيتام، وإلى المحتاجين الذين لا يجدون كفالتهم، وإلى الجار الذي تربطهم به القرابة، والجار الذي لا قرابة بينهم وبينه، وأمرهم كذلك بالإحسان في صحبة كلِّ مصاحبٍ ومرافقٍ لهم؛ كرفيق السفر، وكالزوجة، وكذلك أن يُحسنوا إلى المسافر الذي يمرُّ بهم مجتازاً، وأن يُحسنوا إلى من يملكونه من بشرٍ رقيق، أو حيوانٍ، فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ من كان معجباً بنفسه، متكبراً على غيره، ومن يثني على نفسه ويمدحها فخرًا وبطراً على الخلق، هؤلاء هم الذين يمسكون أموالهم عن الإنفاق فيما أمر الله تعالى، بل ويأمرون غيرهم بالإمساك أيضاً، ويخفون ما أنعم الله به عليهم من مالٍ، وأعدَّ الله لهؤلاء الذين ذكروا صفاتهم عقاباً مُخزياً ومُذلاً، عباد الله: آية الحقوق العشرة: اشتملت على عشرة حقوق لله تعالى وللخلق، وهذه الحقوق العشرة أولها حقُّ الله تعالى وهو التَّوْحِيدُ وَعَدَمُ الإِشْرَاقِ بِاللَّهِ، وثانيها حقُّ الوالدين بالإحسان إليهما في حياتهما وبعد مماتهما، وثالثها حقُّ ذِي الْقُرْبَى وَهُوَ الْقَرِيبُ لِنَسَبٍ أَوْ مُصَاهَرَةٍ، ورابعها حقُّ الْيَتَامَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وخامسها حقُّ الْمَسَاكِينِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وسادسها حقُّ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى، وسابعها حقُّ الْجَارِ الْجُنْبِ أَي: الْجَارِ الْأَجْنَبِيِّ مُؤَمَّنًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَثَامِنًا حَقُّ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ كَالزَّوْجَةِ وَالصَّدِيقِ الْمَلْأَزِمِ، وَتَاسِعُهَا حَقُّ ابْنِ السَّبِيلِ، وَهُوَ الْمُسَافِرُ، وَعَاشِرُهَا حَقُّ مَلِكِ الْيَمِينِ، وَهُوَ الْمَمْلُوكُ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى، فهذه آية عظيمة اشتملت على هذه الحقوق العشرة، افتتحها الله تبارك وتعالى بالأمر بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، قال الله تعالى: يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ: يا معاذ! أتدري ما حقُّ الله على العبادِ وما حقُّ العبادِ على الله؟ قال قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا قَالَ قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَشْكُرُوا [رواه البخاري ومسلم] فحق الله تعالى أعلى الحقوق وأعظمها وأحفظها بالتقديم، ثم بعده حق المخلوقين، و أكدهم وأولاهم بذلك الوالدان؛ فإنها أحق الناس بحسن الصحبة، وقد قرن سبحانه بين حقه تعالى وحق الوالدين، كما في هذه الآية: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وقال تعالى: أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، وفي الحديث المتفق عليه: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَعَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحْمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ، وليست الصلة فقط أن تصل من وصلك، بل الصلة أن تصل من قطعك، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها [رواه البخاري] وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك [رواه مسلم] وفي الحديث تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق أكل الرماد من الأثم، ولا شيء على المحسن إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه، وتكون صلة الرحم لا يصلح ما يمكن من الخير، ودفع ما يمكن من الشر بحسب الطاقة، ومن ذلك: الصدقة على المحتاج منهم وإعانتهم، كما تكون بطلاقة الوجه وبالدهاء لهم والسلام عليهم، ثم أوصى تبارك وتعالى بالإحسان إلى اليتامى، وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والنفقة عليهم، وفي الحديث: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، ثم قال تعالى: والمساكين، وهم المحتاجون الذين لا يجدون ما يقوم بكفالتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفالتهم وتزول به ضرورتهم، ثم أوصى تبارك وتعالى بالجار، فقال سبحانه والجار ذي القربى، وهو الجار الذي بينك وبينه قرابة، والجار الجنب أي: الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة؛ فقد مر بنا في الوصايا الخمس قوله صلى الله عليه وسلم: وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً... ثم قال تعالى: والصاحب بالجنب، قيل: هي المرأة، وقيل الرفيق في السفر، ولكلٍ منهم حقوقٌ جاءت الشريعة بالأمر بها، والحث على أدائها، ثم قال تعالى: وابن السبيل، وهو المارُّ المحْتَاز في السفر؛ فإنَّ الله عزوجل قد أوصى بالإحسان إليه، واعلموا أيها الإخوة أنَّ الذي يقوم بهذه الحقوق هو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقدِّم بذلك فإنه عبد مُعْرِضٌ عن ربه، مُعْرِضٌ لسخطه وعضبه، لأنه غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه فخور بقوله، ولهذا ختم الله سبحانه الآية بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا.